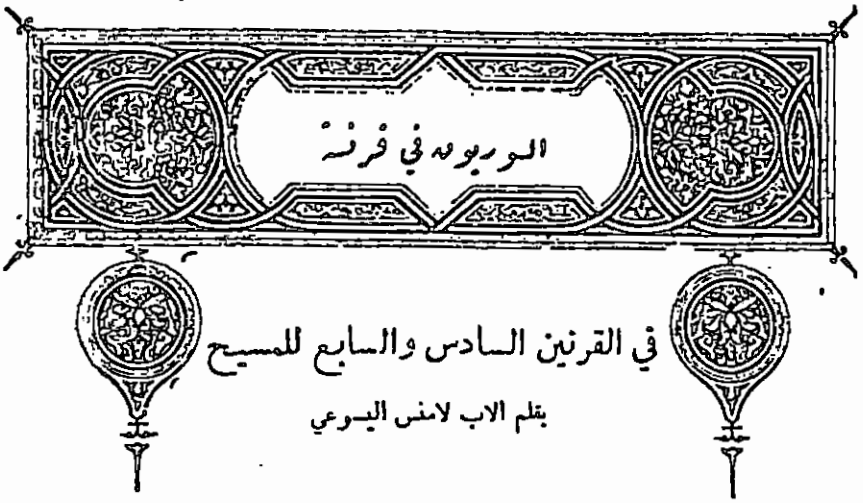

في القرنين السادس والسابع للمسيح

بقلم الاب لامنس اليسوعي

اودّ ان ابيّن في هذه السطور ، كيف باشر السوريون بسط نفوذهم الاقتصادي على بلاد غالية ، وكيف توفقوا الى جعلها مستعمرة تجارية ملحقة بوطنهم الاصلي ، على مدة قرنين تقريباً ، اي طول حكم الميروفنجيين. ولا شك ان هذه اللمحة التاريخية تساعدنا في فهم مسألة المهاجرة السورية المهمة ، كما انها تعيننا في قدر ماضي هذا الشعب النشيط حقّ قدره ، وقياس مواهبه المتنوّعة قياساً عادلاً .

بينما نرى الفلّاح المصري شديد التعلق بارضه ، يعيش ويموت في منطقته الضيّقة ، نرى جاره الفلسطيني ، السوري ، اللبناني لا يفتأ مسافرًا من قطر الى قطر . وهو ميل غريزي فيه وراثة عن اجداده الفنيقيين ، جوّابي الآفاق وقاطعي الصحاري والبحار ، مؤسسي نظام الرحلات البرّية والاسفار البحرية ، حتى ان اسم الفنيقي غدا ، في التوراة ، مرادفاً للتاجر ، للبائع النقّال الذي نعده بحقّ سلفاً لتجارنا المتنقلين ووسطائنا الجوّالين في مدن الغرب. كان الفنيقي يرحل ليصيد الزبون ، فيصل الى بلاده ، ويعرض عليه بضاعته . ثم يشتري من بلاد هجرته الموادّ الاولية ، او المصنوعات الخاصة ، فيحملها الى بلاده ويقدمها محسّناً فيها وزائدًا عليها . واننا نرى في العهد العتيق ذكر « المرأة القويّة » التي كانت تستعمل اوقات فراغها لنسج الصوف منتظرة مرور الكنعاني الفنيقي .

وكان السهل الفنيقي الضيّق المحصور بين البحر والجبل تنتشر فيه المعامل والمصانع مشتغلة كأنها في سبيل التصدير الى البلاد الاجنبية ، منتجةً انواع

الزجاج والاصباغ المختلفة ، ومصنوعات الفخار ، وقطع النسيج ، ظاهرةً جميعها بمظهر خلايا النحل المتراكمة بعضها الى بعض ، الدائبة على العمل دون انقطاع . وطالما أعجب قدماء الكتبة والمؤرخين بهذه الحركة المتواصلة ، وبروح الاقدام الذي يميز الفنيقيين ، فقال عنهم بومپونيوس ميلا انهم « امة صناعية مجتهدة ، معتبرة في اعمال الحرب والسلم ، وانهم تجّارة فائقو المهارة .» وكذلك رأي القديس ايرونيموس فانه ، في شرحه مقطع النبي حزقيال المشهور عن ازدهار تجارة الصوريين ، يشهد ان السوريين يظهرون بحق وجدارة ابناء اولئك التجار الاقدمين فانهم ورثوا « ميلهم الشديد الفطري للاعمال التجارية الرابحة . وان هذا الميل يقودهم حتى اقاصي المعمور . وعلى الرغم من اكتساح البرابرة الامبراطورية الرومانية ، وفي وسط الجيوش ، وتجاه موت الماكين ، تراهم يسعون دائماً في سبيل جمع الثروات والهرب من الفقر ، وسط المخاطر .» واننا لنخال هذه الاسطر المكتوبة قبل ستة عشر قرناً مقتضبة من تقرير عصري عن المهاجرة السورية .

ومن اهم ما كان يدفع قدماء السوريين الى القيام بهذا الدور الخطير طبيعة تكوين بلادهم وهيئتها الجغرافية ، وهي جسر بين قارات العالم الثلاث يتصل من بيداء الرمال الى امواج المتوسط . وقد استخدموا طريق البحر بكل جرأة ومهارة فعزّزوا بواسطتها المواصلات الدولية المختلفة محققين من عصر بعيد قول ليوپولد الثاني : « ان شعباً له منفذ على البحر لن يكون بالشعب الصغير ! » وهو ما يشرح لنا هذه الحقيقة التي لا سبيل الى انكارها وهي ان البلاد السورية كانت في العصر القديم ، وفي عهد طويل من القرون الوسطى ، المركز المهم لحركة صناعية دائبة متنوعة ؛ واضحت مستودعاً جامعاً أثمن محصولات الشرق الادنى والشرق الاوسط .

وقبيل العصر الذي ندرسه اليوم (القرنين السادس والسابع للمسيح) يذكر مؤلف «وصف العالم الروماني» اهم صادرات البلاد السورية فيعددها قائلاً : « انبذة غزة وعسقلان ؛ الكتان المصنوع في سيتوپوليس (بيسان) ، ولاوديسية (اللاذقية)، وبيبلوس (جبيل) ، وتير (صور) ، وبيريت (بيروت) ؛ واوجوان قيصرية

ونابلس ولدّة ؛ وتمر اريحا ونخلها ؛ وفستق دمشق وفواكهها . » وهو ينهي لائحته بذكر ممثلي المهازل والمهرّجين والمضحكين والموسيقيين والمصارعين الذين كانوا يحيون الملاهي في مدن الشرق ، والذين كانوا مجذقهم ورشاقتهم يسلّون ويلهون قدماء الغاليّين . ويُستنتج من عدة كتابات ان مهارة السوريين الموسيقية كانت مشهورة طول العهد الاول من القرون الوسطى ، حتى ان الكثيرين منهم توصّلوا ، بواسطة مواهبهم الموسيقية ، الى اعلى المراتب الكنسية في بلاد الغرب .

وان من يتصفّح التواريخ اليونانية واللاتينية يعجب باجماع مؤلفيها على القول بغنى البلاد السورية وكثرة مواردها الحيوية . وقد زادت هذه الموارد وازداد بها غنى البلاد ، في القرن السادس ، اذ بدأت صناعة الحرير . ويعود الفضل في ذلك الى راهبين فاضلين أتيا ، تحت طي الخفاء ، من بلاد الصين ببعض بزور القزّ . هذا وان اللائحة التي اوردناها اعلاه اغفلت ، ولا ندري لاي سبب ، ذكر الزجاج الذي كان من اشهر الصناعات السورية واجداها عائدة على البلاد . وهذه لائحة اخرى بالصادرات السورية مختصرة عن الجغرافي الشهير المقدسي : الزيت ، وانواع الصابون ، والمنسوجات النصف حريرية ، والقطن ، وصبغ النيل ، والموز ، والعسل ، والسكر ، والمرايا ، وانواع النحاس ، والارز ، والاطياب وعطور الازهار ، وجميع انواع العنب والفواكه المجفّفة والمطبوخة .

ولكن مع كل ما تقدّم لا يمكننا القول ، كما لا يزال البعض يزعمون ، ان سورية او سهول البقاع كانت اهراء الامبراطورية الرومانية . وليس ذلك لجدب هذه البلاد ، بل لان ثروة البلاد السورية كانت تستند الى موارد اقلّ كلفةً من مورد الحبوب واوفر انتاجاً . فان سورية كانت تصدر الى العالم اليوناني - الروماني ، والى العالم البربري الذي خلفه ، بضائع الترف وسلع البذخ التي تقابل ما ندعوه اليوم « بسلع باريس » كانواع الطيوب ، والمنسوجات الحريرية والكتانية المطعّمة بالذهب وبعض الهنات التزيينية القيّمة ، ثم الافاويه والحجارة الكريمة والمعادن الثمينة التي كانت تستوردها من الهند ومن بلاد العرب .

ثم ان الانبذة السورية كانت تحتلّ الاسواق في بلاد غالية وتفوق غيرها ،

وكانت انبذة فاخرة بشهادة غريغوار التوري ؛ وكما اننا لا نتصوّر اليوم مأدبة لا تنتهي بأكواب الشمپانيا ، كذلك لم تكن تخلو موائد اغنياء غالية في القرون الاولى للمسيح من نبيذ غزة الفاخر . وكذلك كانت حالة اوربة في ما بعد ، في ما خصّ نبيذ قبرص .

وان من يسافر في انحاء سورية يستفيد من المعلومات ، في هذا الموضوع ، ما لا يقلّ عما يستفيده دارس الكتب ، بشرط ان يلاحظ ما حوله . فانه لا يلبث ان يتأكد أن ما يرويه قدماء المؤلفين عن خصب هذه البلاد ورخاء المعيشة فيها لا يمكن نسبته الى المغالاة . يشهد بذلك ايضاً ما نراه من بقايا الآثار الراقية الى العهد الروماني - البيزنطي ، الدالة كلها على حياة فنية موافقة ما تتطلّبه المدنية من التأنق في الرفاهية والترف كتلك الكنائس الرائعة ، والقصور الرشيقة ، وكثرة ما فيها من الفسيفساء . فاذا عرفنا ان الفنون الجميلة لا تكون حصّة الشعب الفقير التعيس ، تحقّقنا السعادة التي كانت تتمتع بها بلادنا حتى في مناطقها المجاورة الصحراء ، وادركنا الدافع الذي حمل الامبراطور يوستنيانوس ، اذ رغب في تأسيس مواصلات دائمة بين القسطنطينية وبلاد الغرب ، على اختيار السوري اذايوس وجعله رجل ثقته . فانشأ المراكب التي قامت بالمواصلات المنظمة بين بلاد غالية والمرافئ السورية .

* * *

منذ عصور النصرانية الاولى ، نرى الجوالي السورية في غالية . الّا انهم في اول عهدهم كانوا يختفون بين جمهور الرعية الرومانية فيتبعون طقوسها الدينية ويتسمّون بالاسماء اللاتينية ويتكلمون اللغة اللاتينية . وعلى الرغم من روح الاقدام المتأصل فيهم ، ومهارتهم في تحسين المعاملات واغتنام الفرص ، لم يكونوا اذ ذاك لينتصروا على تلك المدنية الفائقة القوية . ولكن لم تلبث الحالة ان تغيّرت . فما اخذت القبائل الجرمانية تكتسح الامبراطورية منذ القرن الخامس ، حتى بدأ السوريون يتميزون من جمهرة الشعب الوطني ، كما يلاحظ القديس ايرونيموس ، ويأخذون شيئاً فشيئاً بالسيطرة على السوق التالية . الى ان سقطت الامبراطورية العظيمة ، فراعت سقطتها الغاليين وكأنها بورتهم

وقيدت مواهبهم فعجزوا عن كل عمل من شأنه مقاومة عناصر الانحلال التي امتدت اليهم ، فاخذت الفوضى تسود بلادهم مرجعةً اياها الى عهد البربرية ، فضعضت صناعاتهم وسائر محصولاتهم وتطفل الكثير منها ، وغارت رؤوس اموالهم . وهي كارثة اقتصادية تتبع دائماً الكوارث السياسية ، كما تحققناه بعيد الحرب الكبرى .

ولما كان فتح السوق الهندية الغنية والسيطرة على محصولاتها ، الهدف الدائم للشعوب الاقتصادية ، — وهو السبب الحقيقي لجميع المشاكل التي تخلقها المعضلة الشرقية منذ القديم حتى اليوم — ولما كانت سورية تقع في محطة من اهم محطات هذه السوق الهندية ، استفاد تجارها وارباب صناعاتها من هذا المركز المهم ومن حالة الامن والسلام التي كان يرتع فيها الشرق اذ ذاك ، فوسعوا نطاق اعمالهم ، وزادوا محصولاتهم زيادة تطلبت المنافذ الاجنبية . فحصل ما نعرفه من درس الشرائع الاقتصادية ، وهو ان المصدر الاغنى والاقدر يسيطر على السوق ، ويتسلط على المشتري الضعيف ، ويملي شروطه كما يريد ، فيتحكم بالمعاملات المالية ، ويجعل الاولية لنقده وطرق مبادلاته ، وبكلمة واحدة : يشتري رخيصاً ويبيع غالياً . وهذه كانت حالة السوريين في غالية الميروفنجية والقوطية .

ولم يكن السوريون وحدهم في هذه الحلة المالية والاقتصادية ، بل صادفوا هناك غيرهم من الشعوب الشرقية وناقسوهم في معاملاتهم كاليونان والارمن خصوصاً ، والفرس والمصريين ولاسيما اهل الاسكندرية منهم . الا ان الغربيين لم يكونوا ليميزوا بين هؤلاء الشعوب بل كانوا يدعونهم جميعهم « بالسوريين » ، كما كان الشرقيون يدعون جميع اهل اوروبة « بالفرنج » وكما كان سلفاؤنا في اوروبة لا يميزون المسلمين من الاتراك . ولكن من الحق ان نلاحظ ان دعوة كل الشرقيين باسم اهالي سورية لدليلٌ واضح على اهمية هذا الشعب بالنسبة الى الباقين ، وعلى تأثيره في الحركة التجارية اذ ذاك . فهو إجمالاً اولى السوريين مجداً وفخراً ، ولكنه اضرّ بسمعتهم احياناً كما سنرى .

في كل مهاجرة ، وفي كل تجربة استعمارية ، يدخل كثير من العناصر المضطربة ، ان لم نقل الفاسدة . فالتاجر ليس بالمرسل الديني ، وهو لا يهتم بطرق الكمال ولا بسبل المثل الاعلى . ولم يكن جميع المهاجرين الى غالية من ارقى

طبقات الشعب ؛ كان فيهم من جميع الطبقات ، من المتشردين ومن ارباب المخاطرات . وسواء كان هؤلاء من السوريين او اليونان او الارمن ، فان الرأي العام الغالي لم يكن ليميز بينهم بل كان يدعوهم جميعاً بالسوريين محتملاً سورية تبعة اعمالهم .

ثم ان ما حصّله السوريون من النجاح بفضل مواهبهم التجارية ومهارتهم ، جعل الوطنيين ينظرون اليهم بعين الحسد ، اذ كانوا يرون بضاعتهم كاسدة ، وحوانيتهم مقفرة . فكانوا يتذمرون من تلك المنافسة الاجنبية ويلجأون احياناً الى الحكومة . من ذلك ان حكومة رومة لكثرة ما ورد عليها من شكاوى تجارها الوطنيين ، قررت اخراج السوريين من منطقتها ، ولكن سرعان ما رجعت عن قرارها إذ رأت المجاعة تهدد شعبها . وان هذه المنافسات والمناظرات والاختلافات لا مندوحة عنها بين الشعوب المتباينة في العادات والعقليات ، لاسيما اذا كانت تتجه كلها الى غاية واحدة فتزيد المنافع المادية الحالة خطورة وتجر احياناً الى انشقاق مهم ينتج غالباً عن سوء التفاهم . وان المهاجر ، مهما كانت اخلاقه سامية ، لا بد ان يراه الوطنيون اجنبياً وبالتالي غير مرغوب فيه ، حتى عندما يستمالون مواهبه ويستفيدون من وجوده بينهم . فان كان فقيراً يحتقرونه ، وان كان غنياً بارز الشخصية ذا نفوذ يحسدونه فيكرهونه . وان على التاريخ ان ينتبه لهذه الخصائص فلا يولي اهمية عظيمة للخلافات بين الوطنيين والاجانب لانها لا تدل غالباً على شيء يُذكر في اخلاق الشعوب المهاجرة في سبيل التجارة او الاستثمار .

ولكن لنعد الى السوريين ، فاننا نراهم في المهدين القوطي والفرنجي حائزين على تفوق اقتصادي لا يُنكر ، وعلى نظام تجاري لا يُجارى . وقد جاؤوا برؤوس الاموال وبالمحصولات المتنوعة الى بلاد كانت قد افقرتها الحروب المتوالية والفوضى المستديمة . اما ان يكون السوري اراد الاستفادة من حالة البلاد ومن تفوقه على تجارها حتى انه لم يهتم دائماً بتحسين علاقاته مع الوطنيين ولم يراع شعورهم في الكثير من الاحوال ، فهو أمر لا يسلم منه بشري . ولكن يجب الا ننسى ان الوطني يتهم دائماً الاجنبي ، او الدخيل ، كما يدعوه .

وهو لا يخفر له ان يبيعه غالياً ادوات الترف التي يدفعه الزهو والعجب الى شرائها ، ولا يرى بعين الرضى نجاح ذاك الدخيل حيث يخفق هو الوطني الأصيل . وعلى هذا القياس نرى ان جميع الشعوب التجارية كالفنيقيين والقرطاجنيين واليونان والارمن والبنادقة والبرتغاليين والهولنديين والانكليز كثيرًا ما نُسبوا الى الطمع والاحتيال.

كان السوريون ، قبل العصر الذي نبحث فيه ، قد توصّلوا الى اسمى مراتب الامبراطورية الرومانية ، فانالوا العرش أسرة ملكية . وها انهم في القرنين السادس والسابع يصلون الى كرسي بطرس فيجلس عليها منهم خمسة باباوات . وهي سلسلة من الاحبار الاعظمين لا نعرف مثيلًا لها في شعب آخر الّا الشعب الايطالي . وتشهد اللائحة الحبرية (*Liber Pontificalis*) ان الفضل في انتخاب هؤلاء الباباوات عائد لصفاتهم الشخصية ، وهي شهادة صريحة تنفي كلّ افتراض وتشكيك . ولم تنحصر رغبة السوريين في الارتقاء الى اسمى مراتب الكنيسة ، في ايطالية وحدها ، بل نراهم في غالية ايضاً ، بعد ان سيطروا على المصارف والمتاجر ، ورأوا وظائف الحكومة مسدودة دونهم ، يوجهون ابصارهم نحو الكنيسة وكثيرًا ما كانوا ينجحون فيلبسون التاج ويحملون المكاز . الّا ان منافسيهم ينسبون هذا النجاح الى الدسائس والرشوات ، وسنرى في ما يلي كيف ان المال السوري اثّر في انتخاب صاحبه مرّة واحدة على الاقل . ولم تلبث هذه الرغبة في المراتب العالية ان تأصلت فيهم واصبحت كيزة خاصة لهم بما تدلّ عليه من روح الاقدام والثقة بالنفس . ويشير المؤرخون الى ان جميع المنتخَبين من السوريين للمراتب الكنسية العليا كانوا بارعين في الموسيقى . ويقول سيدوان ابولينير ، اسقف كليرمون ، في احدى اهاجيه : « السوريون يرتلون في الحفلات الدينية ! » « *Psallunt Syri* » وهو يظهر تعجبه بتقد لاذع ، لانه يعرف السوريين ماهرين في البيع والشراء ، متخصصين بالوقوف امام مناضد البضائع او الجلوس على كراسي المصارف ، فيستغرب تحوّلهم الى اكليريكيين يرتلون في الحفلات الدينية ويقرأون على القرّاءات في الكنائس.

(للبحث صلة)